حِبر أبيَض
WHITE INK

أ.د. حياة الرشيدي

رحلة الوزير الإسحاقي من المغرب إلى الحج سنة 1143هـ

مقالـــي هذا رحلة في رحلة عن البلد الأمين، وتُعَد هذه الرحلة مصدرًا غنيًّا بالإنتاج وعاءً مهمًّا ينضـــح بمعلومات وروايـــات أحداث ومواقـــف عاصرها كاتبها "الوزير محمد الشـــرقي الإســـحاقي"، ولقيمتها التاريخية أشـــاد بها الباحثـــون المغاربة وغيرهـــم، والتقى بعلماء وجلـــس إلى حلقاتهم، والتعريف بالمسالك والممالك ووصف الطرق وظروفها.

وتُعتبَـــر الرحلات تســـجيلًا لنشـــاط مدونها، وتختلف الأســـاليب والأهـــداف ولكن ينتج تســـجيلًا لمعلومات قد لا يلتفت لها مؤرخو عصرهم؛ لأن الرحالة يسجِّل ما يشاهده ويلمسه، ولا يعنـــي ذلك التعميـــم على كل من كتب بأنـــه قد نقل نقلًا خطـــأً أو مبالغًا فيه، ومثل شـــخصية الإســـحاقي كوزيـــر وله منصبه فـــي بلاده -المغـــرب- وكان مرافقًا ضمن الوفـــد المرافق لزوجة السلطان وحفيده إلى البقاع الطاهرة.

لقد كتب الإسحاقي في مرحلة وحقبة مهمة، وهي علاقة المغرب الحديث بالشرق العثماني -هكذا وصفه محقق المخطوط محمد الأندلســـي-، وكذلك دول المغاربة التـــي كانت تابعة له تبعية اسمية، وهذا تأكيد آخر أن العثمانيين تبعهم المغرب اسمًا فقط. لقد وثَّق الإسحاقي السياسة التركية -وأيضًـــا هنا يصفهـــم بعرقهم التركي- عن مدى مظاهـــر الظلم والجور الذي تتعـــرض له المناطق العربية، منتقدًا الجور في جمع الجباية والضرائب والرشـــوة وفســـاد القضاء والتضييق على الحجاج، خاصة المغاربة منهم، وتناول ذلك خلال رحلتهم إلى الوصول وتأدية مناسك الحج وفيها الكثير المثير.

يقول الإســـحاقي: "لما خرجنا من مضيق الشـــعب الذي يدخل منه إلـــى بدر-يقصد محاذاة موقعة بدر الكبرى- على طريقنا من ينبع، لقيت شـــيخًا من أتراك مصر، فســـايرته في الطريق هنيئة، فسمعته يتكلم مع رفيق له في شأن بدر وحنين، فقلت: يا شيخ حتى حنين هنا؟ فقال لي: نعم، فقلت له: وأين هي؟ فقال لي: من وراء هذا الجبل، فقلت في نفســـي: ســـبحان الله! ما أجهل هذا الشيخ! ثم ســـألت الناس، فإذا هم أجمعون يلهجون ويقولون: بدر وحنين، ينطقـــون بهما كذلك حتى كأنهما لا يعقل أحدهما وهما اسم واحد...".

ويقول في موضع آخر من رحلته عند ذكره للحجر الأســـود ومكة المشرفة ووصفها وكل ما يتبع ذلك من مشـــاهدات، يقول: "... ومكة شرفها الله بلدة قد وضعها الله بين جبال محدقة بها، وهي بطن وادٍ مقدَّس، كبيرة مستطيلة تسع من الخلائق عددًا لا يحصيه إلا الله عز وجل..." .

ويقول: "... ولقد شـــاهدنا من صعاليك الحجاج من لا يملكون بغلة ولا بلغة، ولا يجدون من العيش بلغة، من يقول له حجتان وثلاثة حجج وأكثر، وعلى تلك الحال في الحل والترحال...".

ويصل إلى ذكر وقائع شـــاهدها وتمت ممارستها أمامه، وهي: "... وما ذاك إلا حكمة من الله وتصديق لدعوة نبيه إبراهيم عليه السلام، هذا مع قيام أســـباب أُخَر تبيح أو توجب التأخر عن الحج في هذه الأزمنة، من عادية العرب وامتهان الترك للحجاج وإذلالهم لهم في المصادر والموارد ومصادرتهم في الأموال والأمتعة وقبض الخراج منهم (عن يد وهم صاغرون) -يستشـــهد بهذه الآية من قسوة ما رأى- وقد شـــهدناهم -قبح الله سعيهم- وَكَّلوا على مماكسة الحجاج على أحمالهم يهوديًّا من اليهود، وقبض ذلك مرتين، وربما أحتاج -لعنه الله ولعن من وجهه- (هذه عبارات الإسحاقي) إلى كشف بعض الخيام، بل إلى الحرم لاســـتخراج ما عســـى أن يكون قد غُيب من الأحمال التي يثبت نهايتها في ديون المكوس التي لا ترتضيها أطايب النفوس، ويكفيهم مهانة وقلة ديانة اتخاذهم ببيت الله الحرام سببًا للمعيشة الحرام، بما يتساقطون عليه ويتهافتون عليه عند ولاتهم وأكابر مجرميهم من طلب التولية على الأعمال المكسية التي سيزعمون أنها قوام كسوة الكعبة المرضية".

وأختـــم رحلتي بما وثَّقه الإســـحاقي من تحسُّـــر على حال البيت المعظـــم وجمع الأموال وتعيين من هم أعداء له، فقال: "... هذه قريش في جاهليتها عندما أرادوا أن يبنوا البيت الحرام تعاقدوا وتعاهـــدوا على أن لا يدخلوا في بنائه مالًا حرامًا، فيا لله من هذه الأوباش! أذال الغز الذين اتخذوا مال الله دولًا وعباد الله خولًا، قطع الله دابرهم وألحق بأولهم إلى العذاب آخرهم، وقطع بِدَعهم بســـيوف الأشراف أهل البيت الذين تولى الله تطهيرهم تطهيرًا".

ذلك حال وزير في عصره، فكيف حال الضعفاء آنذاك؟!